شوقي والجيش

الاستاذ أحمد محمد الحوفي
المدرس بكلية دار العلوم

تمهيد ـ تمجيده للقوة ـ حسراته على ضعف مصر ـ دعوات إلى قوة جيشها

— ١ —

دعا شوقي إلى السلام ، وحببه إلى الأنام ، على أن يكون وسيلة إلى الحياة الحرة الأبية ، لكنه مجد القوة تمجيدا مالم يكن من الحرب بد .

وأوحت إليه بيئته السياسية . ودراسته التاريخية ، وأحداث عصره التي شهد ـ أن الأمة لا حياة لها في هذا العالم المستأسد إلا إذا ادرعت بالجيش ، فمحمد على مؤسس الأسرة العلوية شيد ملكه الوطيد على دعائم جيشه ، وإسماعيل العظيم بسط ملك مصر بأيدي جنده ، ومصطفى كمال أحيا تركيا وحصنها بعدده وعديده ، ومصر غلبت على أمرها لما أمن الإنجليز رهبة جيشها ، فلا عجب أن يمجد شوقي ـ وهو العليم بهذا كله ـ القوة البرية والبحرية والجوية ، ولا عجب أن يكثر من دعوة الأمة إلى أن تتسلح ، بل العجب لو أنه تغافل ، أو لبس مسوح النساك فزين السلم والدعة لمصر لتقابل الإساءة بالإحسان ، والعدوان بالصفح والغفران .

كان ينهز المناسبات فيصور حزنه على ضعف مصر ، وينهز المناسبات فيصيح في مصر أن هبي واجمعي جموعك ، وجيشي جيوشك ، ويتحين الفرص المواتية فيشيد بعهود القوة وآثار القوة .

— ٢ —

يناجى محمد على باشا الكبير بعد مرور مائة سنة على توليه معجبا بملكه الواسع الذى مده ، منوها بجيشه الباسل الذى أعده ، فخورا بأسطوله الذى يبهر ، وفرسانه البواسل الصناديد ، ويرى أن هذه سلم العلا ، وسياج السؤدد .

هذا دولة وملك كبير أنت بانى ركنيهما يا محمد
ولواء فى البر والبحر يعطى مظهر الشمس فى الوجود وأزيد
تدخل الأرض فيه قطرا فقطرا مدخل الناس فى شريعة أحمد
تملأ الأرض صافنات ، وتجرى لك فى البحر كل برج مشيد
هكذا فلينل سماء المعالى من سعى فى الورى لمجد وسؤدد

ويحيى الخديو إسماعيل يوم نقلت رفاته إلى القاهرة بقوله :

كل يوم صرح يشيد للعلا م وظل يمد فى مصر مدا
ولواء وعدة وعديد ونظام نرى به الشهب جندا
وغزاة فى البيض والسود ، تبغى مصر فيها مجدداً مستردا

(٣)

وطالما تغنى شوقى بتاريخ مصر الفرعونية وقوتها ، كما تغنى بقوة مصر الحديثة وعظمتها ، ومجد هذه القوة وأذكاها . وكأنما كان يحس برد الراحة فى أن يبث شكاته من ضعف مصر توت عنخ أمون ، أو كانت قوة مصر فى عهد الفراعنة تضجره من ضعف مصر المعاصرة ، ولعله لم يقصد عهد توت عنخ أمون ، نفسه ، فانه ليس من القوة الحربية بحيث يعادل أو يشابه عهد رمسيس الثانى مثلا ، ولكن شوقى رمز إلى القوة الفرعونية بهذا الملك الشاب الذى بهر العالم الكشف عن قبره ، على أنه أشاد برمسيس الثانى وقواه الحربية .

يتخيل فى إحدى قصائده أن توت عنخ أمون جزع لما رأى العرين مستباحا لا آساد تحميه ، ولا أسلحة تمنعه وتقيه ، فليس فى البر جيش ولا فى البحر أسطول .

قل لى : أحين بدا الثرى لك هل جزعت على النعرين ؟
آنست ملكا ليس بالشـــا كى السلاح ولا الحصـــين
البر مغـــلوب القنـــا والبحر مسلوب السفين
لما نظـــرت إلى الديا رصدقت بالقلب الحزين

ويتمنى فى قصيدة أخرى أن تستعيد مصر قوتها الفرعونية فيملأ جيشها البر ، وتضم إليها جنوبها (السودان) ، فهو ينبوع حياتها وسكانه إخوتنا وذوو قرابتنا ، أدام الله هذه القربى دواما لاقطيعة بعده ، فلا انفصال ولا استقلال ولا فرقة ، ثم يأسى بعدهذه الأمنية ، لأن الواقع المتجهم يصدمه ، فيتخيل أن توت عنخ آمون قد قطع فى سفره إلينا أربعة آلاف عام كابد فيها مشقات الرحلة ليرى مايبهجه فرأى ماساءه ، رأى انجلترا تحتل مصر شمالها وجنوبها بدعوى حماية الهند ، ورآها تتصرف فى جنوبى الوادى تصرف المغتصب ، فتبنى سدود الماء لتحتجنه عن الشمال ، ورأى علمها يخفق على قناة السويس ، فود لو أن جدار قبره لم ينقض ، وود لو أنه لم يبعث هذا البعث المشئوم .

قم سابق (الساعة) واسبق وعدها الأرض ضاقت عنك فاصدع غمدها
واملأ رماحا غورها ونجـــدها وافتح أصول النيـل واستردها
شلالها ، وعذبهـــا ، وعدها واصرف إلينا جزرها ومدها
تلك الوجوه ـ لاشكونا فقدها ـ بيضت القربى لنا مسودها
سافر أربعين قرنا عدها حتى أتى الدار فألفى عندها
انجلترا وجيشهـــا ولوردها مسلولة الهندى تحمى هندها
قامت على السودان تبنى سدها وركزت دون القناة بندها
فقال ـ والحسرة ما أشدها ـ ليت جدار القبر ماتد هدها

وفى قصيدة ثالثة يشهد توت عنخ آمون أن مصر قد صدت عن مؤتمر (لوزان) لأن صوتها لايرهب ، مادامت ليس لها جيش يرعب ، ولو أنها كانت ذات عدة وعديد لخطبت الدول ودها ، وتطامنت لها ، ويحسبها من الخزى

أن (كرزون) وزير انجلترا ومندوبها فى المؤتمر سيمثل مصر على أنها مستعمرة إنجليزية ، أو أمة قاصرة وانجلترا هى الوصية .

يقول لتوت عنخ أمون :

أتعلم أنهم صلفوا وتاهوا وصدوا الباب عنا موصدينا؟
ولو كنا نجر هناك سيفا وجدنا عندهم عطفا ولينا
سيقضى (كرزن) بالأمر عنا ، وحاجات الكنانة ما قضينا

وها قد أعاد التاريخ فصلا من روايته حينما أكد دولة النقراشى باشا فى مجلس الأمن أن بين مصر وانجلترا نزاعا يهدد السلم ، فأكد (كادوجان) مندوب المملكة المتحدة أنه لا خطر من هذه الحالة على السلم ، يريد أن مصر ليس لها جيش يخشى بطشه .

ومن عجب وأسف أن يكون جو مصر الصاحى أكثر الجواء ملاءمة للطيران ، وأن تمز فيه طائرات الأمم وليس لمصر طائرة ، فلماذا لا يثار أشبال مصر ؟ ولماذا لا يستهويهم الطموح إلى أن يطيروا كما طار (صدقى) الطيار فتكرمهم مصر كما كرمته ؟

مصر للطير جميعا مسرح مالنا فيه ذنابى أو جناح
رب سرب قاطع مر به هبط الأرض مليا واستراح
لم لا يفتن فتيان الحمى ذلك إلا قدام أو ذاك الطماح؟
من فتى حل من الجو بهم فتلقوه على هام وراح

وإذا كانت انجلترا تعوق نهضة جيشنا زاعمة أنه خطر على طريقها إلى الهند ، فهل ياترى تعوقنا عن الطيران فى جونا زاعمة أنه أيضا فى طريق الهند؟

تلك أبواب السماء انفتحت ما وراء الباب ياطير النجاح ؟
أسماء النيل أيضا حرم من طريق الهند أم جو مباح؟

— ٤ —

يستحث همم الشباب — وطالما وجه الدعوة إلى الشباب — إلى الاقدام

والبطولة ، ويبين لهم أن الهدف الذى يجب أن يتجهوا إليه إذا آل اليهم الحكم أن يقووا الجيش برا وبحراً وجواً .

قل للشباب بمصر : عصركم بطل بكل غاية إقـــدام له ولع
ماذا تعدون بعـد البرلمان له إذا خياركم بالدولة اضطلعوا ؟
البر ليس لكم فى طوله لجم والبحر ليس لكم فى عرضه شرع

ويرى أن الممالك لا تقوى بالكلام ، ولا تبنى على الأقوال ، وأن الحقوق لا تنال بالخطب ، وإنما تقوى الممالك وتشاد ، وتنال الحقوق وتصان بحد الحسام ، لأن الأمم لا تحق حقا إلا إذا آزرته القوة ، ولأن الخطابة فى المؤتمرات لا جدوى لها ما لم يرجع رنينها مدفع يدوى :

فقل لبان بقول ركن مملكة على الكتائب يبنى الملك لا الكتب
لا تلتمس غلبا للحق فى أمم الحق عندهمو معنى من الغلب
لا خير فى منبر حتى يكون له عود من السمر أو عود من القضب
تلسى الترك أسبابا فما وجدوا كالسيف من سلم للعز أو سبب

ويكرر هذا المعنى حين كان فى الآستانة وشاهد بارجتين اشترتهما تركيا من ألمانيا فى عهد الخليفة محمد رشاد ، ويضيف إليه أن النبى عليه الصلاة والسلام لم يعتمد على الحق المجرد من القوة . ولكنه آزر الحق بالجيش يدفع به العدوان ، ويمهد للدعوة سبيل الذيوع والاستقرار والاطمئنان .

زدهم أمير المؤمنين من القوى إن القوى عز لهم وقوام
الملك والدولات ما يبنى القنـا والعلم ، لا ما ترفع الأحلام
والحق ليس - وإن علا - بمؤيد حتى يحوط جانبيه حســـام
خط النبى براحتيه خنـــدقا ومشى يحيط به قنا وســـهام

ويهيب بالمسلمين أن يكتتبوا لتقوية أسطولهم ، أسطول الخلافة إذذاك ، لأنه مأمنهم من سيل الحادثات الجارف ، ولأنه عدتهم فى الكفاح ووسيلتهم إلى السيادة ، ودينهم لا يرضاهم إلا سادة .

يامعشر الاسلام فى أسطولكم عز لكم ووقاية وســـلام

جودوا عليه بمالكم ، واقضوا له ماتوجب الأعلاق والأرحام
سيل الممالك جارف من شدة وقوى ، وأنتم فى الطريق نيام
حب السيادة فى شمائل دينكم والجد روح منـــه والاقدام

ويقف على قبر نابليون وقفة تلهمه معانى شتى ، يختمها بأن السياسة مازالت تجرى كما كانت فى عهده : ختل ومكر ، وإعزاز للحق المركوز على رمح ، وزراية بالحق الأعزل.

قم تر الدنيا كما غادرتهـــا منزل الغـدر وماء الخادعين
وتر الحق عزيزا فى القنـــا هينـا فى العزل المستضعفين

ويسوقه إيمانه بالقوة إلى تمجيدها وهو يتكلم عن النحل ، فمن يؤسس ملكا أو يصن عرشا فالسلاح عدته ، ولا ملك إلا فى ظلال البنود المنشورة والسيوف المشهورة ، والملك عرين لابد له من أسد يحميه بمخالبه الحداد ، وأنيابه الزرق الفوانك :

من بين ملـكا أو يذد فبالقنـــا المجـــرده
ما الملك إلا فى ذرا الـ ألوية المنشـــره
عرينـــه مذ كان لا يحميه إلا قســـوره
رب النيوب الزرق والـ مخالب المذكره

وإذا كان الطيران يدع هذا العصر وسلاحه الذى كانت الدول تكثر منه قبل الحرب الأخيرة وتعده للنصر ، فقد سماه شوقى سلاح العصر ، وتنبأ بأن الأمة التى لاتتقى نيران أعدائها بأجنحة من طائراتها مصيرها الذلة والهزيمة ، وقد تحقق ماتنبأ به ، فبالطائرات غلبت ألمانيا ، وبها غلبت ، ولاشىء يمنع الحرب كالاستعداد لها ، فالطيران يعصم السلم ويصونها ، وإذا كان لابد من حرب فهو أداتها وأتونها :

ياسلاح العصر بشرنا به كل عصر بكمى وسلاح
إن عزا لم يظلل فى غد بجناحيك ذليل مستباح
فتكاثر وتآلف فيلقا تعصم السلم وتعلو للكفاح

ويقول فى تكريم المغفور له حسنين باشا بمناسبة طيرانه، إن هذا العصر ليس عصر فرسان ولا عصر سنان ، وإنما هو عصر الطيران ، فالى أين مفر الضعفاء من الأقوياء ؟ أيفرون إلى السماء ؟ أم أن المستعمرين سيصلون أيضا فى السماء ؟

هذا زمان لا الأعنة منزل للبأس فيه ولا الأسنة دار
ماالبأس إلا من جناحى خاطف فى البر والبحر اسمه الطيار
أترى السلامة فى السماء وظلها أم بالسماء يصول الاستعمار ؟

ولقد وعظ الماضى والحاضر رجالات مصر وساستها ، فأصروا على تقوية الجيش لتدرأ به مصر عن حماها ، وتعتمد عليه فى إسماع دعواها ، وعما قريب ينتظم الجيش أبناء الأمة جميعا شعبها وسراتها ، فالوطن للجميع ، والجيش حصنه المنيع .

وما الملك إلا الجيش شأنا ومظهرا ولا الجيش إلا ربه حين ينسب

ولا حقيقة من ملك ومن وطن حتى ترى السيف دون الملك عريانا

أحمد محمد الحوفى
المدرس بكلية دار العلوم